يوم الدين: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1].

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾﴾:

يلقون فيها مهانة لهم، وإلقاء للصلاءِ الوَقود، لكي يُصطلون بأنفسهم، فلقد كانت كاظمة غيظها، باطنة فورتها وميزها، وأما الآن وهي تعيش وقودها، فحق لها شهقتها وفورتها وثورتها على الكافرين.

الشهيق. هو الصوت الخارج من الخوف عند تضايق القلب من الحزن الشديد والكمد الطويل، وهو صوت مكروه سماعه، شديد إيقاعه.

أما إنها خائفة من وقودها الشديد، متضايقة القلب الحزين، من ورود هؤلاء الأرجاس الأوغاد، رغم تصبُّرها لورودهم، في كمد طويل!.

تشهق فائرة: مرتفعة الغليان، تجذبهم إلى داخلها جذب الهواء بشهيق النفس إلى داخل الصدر.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾:

من قولهم تميزت القِدر، إذا اشتد غليانها، ثم صارت الصفة خاصة الإنسان المغضب، وهنا وصفت النار بصفة المغيظ الغضبان الذي من شأنه - إذا بلغ ذلك الحد - أن يبالغ في الانتقام، ويتجاوز الغايات في الإيقاع والإيلام، وقد يوصف الإنسان الشديد الغيظ، بأنه تكاد يتميز غيظاً أي: تكاد أعصابه المتلاحمة تتزايل، وأخلاطه المتجاوزة تتنافى وتتباعد، من شدة اهتياج غيظه، واحتياج طبعه واحتدامه، فأجرى سبحانه هذه الصفة على نار جهنم ليكون التمثيل في أقصى منازله وأعلى مراتبه.

يا ويلاه! هل ألقيت فيها قنبلة ذرية فتميزت شاهقة فوارة؟ فإنها حصلت

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

على عُدتها بعد عِدَّتها تحرق بها وتحترق، تميز بها وتتميز، وهكذا أعدها ربها لهذا اليوم العصيب! أعاذنا الله شره بحق الحبيب محمد وآله الطاهرين.

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾:

إنما يلقون فيها أفواجاً. فعذاب الإلقاء مهانة، وعذاب الأفواج تطلعاً واطلاعاً، بعضهم البعض، وعذاب النار الشاهقة الفوارة بوردهم، يضاف إليها كلها عذاب التنديد الشديد الذي لا جواب عنه إلا بلى!.

إنهم يساقون إلى جهنم ويلقون فيها أفواجاً: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾[١] جعل الخبيث على الخبيث وركمهم جميعاً: ﴿وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ﴾[٢] ركماً ولكي تشتعل النار وتتميز من الغيظ بركامة وقودها، تناصراً في الصِّلاء، وكما تناصروا يوم الدنيا في إيقادها على المؤمنين.

والملائكة الغلاظ الشداد، وهم أصحابها: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾[٣] هؤلاء العدول الموكلون بالنار يسألون أصحابها: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾: حجة عليهم، وتنديداً بهم أن جاءهم نذير، إذ الهلاك يوم الدنيا ويوم الدين، ليس إلا عن حجة مسبقة تحملها النذر: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾[٤]، فالنذر تكفي حجة يوم الدين، ولو لم تغن أحياناً يوم الدنيا: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾[٥].

وإذ لا تنديد ولا عذاب لمن لم يأته النذر، فما هذا التنديد الشديد بمن لم يأتهم!: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ . . . وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾[٦].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧١.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٧.
(٣) سورة المدثر، الآيتان: ٣٠، ٣١.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ٢٠٦.
(٥) سورة القمر، الآية: ٥.
(٦) سورة سبأ، الآية: ٤٤.

تجد الجواب في: ﴿قَبْلَكَ﴾ فإذ لم يأتهم نذير في الفترة بين المسيح ومحمد ﷺ، فقد جاءهم النذير الأخير محمد، وفيه الكفاءة إنذاراً وفيه المزيد، وإنما الآية توضح السبب في تصلبهم في الكفر: أنهم لم يأنسوا بالنذر قبله، وأنه ﷺ يلاقي أشد الصعوبات في الدعوة، وعليه أن يصَّعَّد أصعب العقبات فيها: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾[1].

ثم إذا كان واقع الإنذار شرطاً لزاماً في جواز العذاب، فما هي - إذاً - حال من عاشوا زمن الفترة كما بين محمد ﷺ والمسيح عليه السلام؟ أو عاشوا في البلاد المنقطعة عن النذر أو عن إنذارهم كأمريكا، إذ اكتشفت قبل حوالي خمسة قرون؟ أو عاشوا في الفترة بين النبيين، بعد موت السابق وقبل بعث اللاحق، أو عاشوا في زمنهم ولكنهم لم يواجهوهم في دعوتهم؟ فليس هناك - طوال التاريخ - إلا القلة القليلة من الكفار الذين تحق لهم النار، لأنهم أتاهم - أنفسهم - نذير! ثم الكثرة الكثيرة لا يعذبون، إذ لم يأتهم نذير!

هنا وهناك تعرف الجواب إذا تعرفت إلى كيان النذير، الذي يفرضُ الحجة على المتخلفين:

إن الإنسان - غير المجنون والصغير - إنه يعيش نُذراً طوال حياة التكليف، مهما اختلفوا في مدى الإنذار وكيفيته، وطول مدته وقصرها، وقوة حجته وأقواها:

فالعقل نذير، والضمير الإنساني نذير، والفطرة نذيرة، وهذه نذر أنفسية دواخل ذواتنا، وهي أسس الإنذار، يتبنّاها المنذرون المرسلون، وتتبنَّاها الآيات الآفاقية في دلالتها وإنذارها، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[2].

(١) سورة يس، الآيتان: ٦، ٧.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

فعلى العقلاء أن يعقلوا عما تحيطهم من آيات الله البينات، ولا أقل الآفاقية الكونية منها، ولا أقل الأنفسية! عليهم أن يعقلوا ويسمعوا ويعوا، ومنهم الماردون الذين يتأوهون يوم الورود: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾[1].

ثم الرسل المنذرون، ليس لزاماً عليهم الإنذار بأنفسهم مواجهة، ولا كلٍّ في زمنه، إنما المدار على بلوغ الإنذار الذي فيه الحجة البالغة، سواء حمله الرسول بنفسه، أم بمبعوثيه، أم بكتابه، ولا سيما الكتاب الذي يحمل معجزة الرسالة ومعجزة الرسول - البالغة الخالدة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾![2].

فكل من بلغته الدعوةُ الحجةُ، كيفما بلغت، وبأيٍّ من الوسائل، فقد لزمته الحجة الإلهية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3].

والعذاب دون حجة الإنذار، وكذلك اللّارحمة واللاعذاب دون بلوغ الحجة، إنهما حجة للناس على الله، وحاشاه! ولكن: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[4] تبلغ العالم بعلمه، والجاهل بعقله ما لم يقصر: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[5] ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[6].

ولقد شمل الإنسان النذر وأحاطوا به طوال التاريخ: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[7] ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[8] لا تشذ النذارة الإلهية جماعة من الجماعات البشرية، أو قطعة من

(١) سورة الملك، الآيتان: ١٠، ١١.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤٩.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٦٥.
(٦) سورة طه، الآية: ١٣٤.
(٧) سورة فصلت، الآية: ١٤.
(٨) سورة فاطر، الآية: ٢٤.

قطاعاتها سواء أكان النذير من رجالات الوحي، أم رسلهم الخاصة، أو العامة، أم - وفي أقل التقدير - نذر العقول التي تهدي إلى نذر الرسل، وتدفع أصحابها للتحري عنهم.

ومما لا يريبه شك أن هناك قرى كثيرة ما أتتهم الرسل: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾[١] ولأن الأصل المبنية عليه الحجة ليس إلا وصول الإنذار الحجة، لا مواجهة أصحاب الوحي كل القرى بكل الأمم، ولأنها مستحيلة في الواقع، إضافة إلى عدم لزومها فيما يرام.

صحيح أن النذر والحجج تختلف، والبيئات تختلف، والعقول تختلف، ولكنما الجزاء كذلك يختلف، وفاقاً لاختلاف هذه المبادئ، و«إنما يداق الله الناس في الحساب يوم القيامة على قدر عقولهم»[٢].

ثم المكلفون في الفترة الرسالية على حد التعبير المسبق، لم يعيشوا إلا فترة رسولية، لا رسالية، حيث الإنسان - كائناً من كان - يعيش دعوات الرسل ورسالاتهم، المودعة في كتاباتهم، والمنقولة على ألسنة خلفائهم وعلماء أممهم، فهم رغم أنهم لم ينذروا بالرسل: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[٣] - هؤلاء الآباء غير المنذرين - ولكنهم أنذروا بحملة الرسالات من العلماء والنبهاء، وعلى أقل تقدير بنذر عقولهم وفِطرهم، وأخيراً لو كانوا قاصرين أو مستضعفين فهم ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[٤] فالتوبة عليهم لضعف الحجة، والعذاب - ولا ريب أنه قليل - لأصل الحجة ما داموا عقلاء! ذلك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٥].

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥١.
(٢) أصول الكافي: باب العقل والجهل عن الإمام الباقر عليه السلام.
(٣) سورة يس، الآية: ٦.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٦.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٨٢.

وأما العائشون في مثل أمريكا، فمن أين أنهم كانوا منقطعين عن الرسالات، ألفصل البحار حولهم؟ فعلَّها كانت متصلة قبل اكتشاف أمريكا، اتصالاً برياً، أم بحرياً بقرب السواحل، ثم ابتعدت لفترة، اكتشفت لآخرها، أم - كأبعد الاحتمالات - كانت المواصلات بحرية رغم بعد سواحلها، وأخيراً، لو تأكدنا من انقطاع المواصلات كلها، بين أمريكا وأراضي الوحي، فمن المحتمل المعقول، بل المدلول عليه بالآيات، أنه كان فيهم منذرون، مستقلون بالوحي، أم من أتباع رجالات الوحي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ...﴾[1].

فهل يا ترى أن الأمة الأمريكانية - قبل اكتشافها - لم تكن أمة بشرية حتى تستحق نذيراً يخلو فيها؟: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾![2] أفهل نكذب كلام الله لأن تاريخ الرسالات لم ينقل لنا عن أنبياء أمريكا شيئاً؟

والقرآن يقول: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[3] وكيف بنا! إذ نجهل أحياناً من قصهم الله، فكيف بمن لم يقصصهم؟!

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾:

هذا الاعتراف - إذ لا مرد لهم منه - إنه عذاب نفسي فوق عذاب التنديد، إضافة إلى عذاب السعير، وشهود الجماهير، وإلقائهم جماعة في السعير مهانة، فقد شملهم وأحاط بهم مختلف ألوان العذاب: نفسياً وجسدانياً، وكما كانوا عذاباً يوم الدنيا في الناحيتين، وخلقوا جو العذاب لمجتمعهم..

وهنا نعرف من الجواب أنهم كانوا ممن جاءهم نذير بالوحي، فواجهوا

(١) سورة غافر، الآية: ٧٨.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٤.
(٣) سورة غافر، الآية: ٧٨.

سفراء ربهم بكل وقاحة وحماقة، تجمع بين توهين الله بفرية: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ وتوهين الرسل: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ وهذه إهانة ثانية لله تعالى، إذ يحسبون رسالته السامية ضلالاً كبيراً، وهؤلاء هم المشركون وكما عن باقر العلوم عليه السلام [1].

ومن هنا نعرف وهن العذاب لمن لم يعش الرسالات، أو يواجهها بهكذا تكذيب وقح، فكل إنسان يعمل على شاكلته، ويجزى على شاكلته، وكان ربك بصيراً.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾:

أجل - إنما هو السمع وعقل ما يسمع، يفلح الإنسان في الحياة، ويفلج خصومه ضد الحياة! سواء أكان سمعاً بسماع الأذن فعقلاً عما سمع، أو سمعاً بأذن القلب وعقلاً له كذلك، فإن للقلب أذناً كما للجسم.

وهناك اتصالات للإنسان بالعالم الخارجي، تجعله كأنه العالم كله، فيمشي مع الكون صراطه المستقيم.. بالسمع والبصر ومطلق الإحساس.

ولكنما السمع أفلح ما يكون وأقربه إلى الاعتبار والعقل، فأكثر ما يسمعه الإنسان ويفهمه، أنه يعقله، دون البصر والحس، فإنهما بعد السمع في الإنتاج.

كذلك دواخل الإنسان من فطرة وصدر وفؤاد وقلب ولب ووهم وخيال، فإن العقل فوقها لأنه الذي يعقل: يأخذ - المفاهيم، بالسمع وبالبصر والإحساس وسواهما، يعقلها فيحولها ويغربلها إلى الصدر والقلب، والقلب عامل نهائي في غربلة ما يرده من الصدر والعقل.

(١) نور الثقلين ٥: ٣٨١ محمد بن مسلم عنه عليه السلام تفسيراً لهذه الآيات.

فإنما هو السمع والعقل، إذا عملا واعتملا كما يجب، كان بعده الفلاح، ثم للمصيب أجران وللمخطئ أجر واحد، ما لم يقصر في الطريق.

ثم العقل: منه قبل السمع: يدفع صاحبه لكي يسمع، ومنه بعد السمع يدفعه لكي يعقل ما سمع، وكثير هؤلاء الذين يسمعون ولا يعقلون، لأن سمعهم ليس عن عقل، أو يكتفون بالسمع فراراً عن تكلفات العقل فيما يسمعون، وكثير هؤلاء الذين لا يسمعون لكي لا يعقلوا، وهم أبعد وأضل سبيلاً، وقليل من يسمع ويعقل ثم يواصل في عقله وسمعه، وعلى حد قول الرسول ﷺ: «ما يجزى أحد يوم القيامة إلا على قدر عقله»(١)، اللهم اجعلنا من هؤلاء القلة.

وإنما يعطف العقل على السمع هنا بـ«أو» لأن عقل الحقائق لا يختص بواسطة السمع وسواه من وسائط الإدراك، إنما الوسائط للأكثرية الساحقة من الناس الحسيين الذين ليست لهم تلك العقول الفائقة الناضجة، ولكنما العقلاء الناضجين يسمعون ويبصرون بعقولهم فوق ما يسمعه السامعون، فإنما هو العقل: عقل الحقائق وإدراكها، سواء أكان عن سمع الأذان، أم سماعاً عقلياً وفطرياً وفكرياً، وهذه هي رؤية الآيات الإلهية في الأنفس: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(٢)

(١) المجمع عن ابن عمر عن النبي ﷺ، وعن أنس قال: أثنى قوم على رجل عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: كيف عقله؟ قالوا: يا رسول الله! نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله؟ فقال: إن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنما يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم. وفي نور الثقلين ٥: ٣٨٢ عن الكافي عن الصادق عليه السلام من كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنة، وفيه عنه عليه السلام قيل له ما العقل؟ قال: ما عبد به الرحمان واكتسب به الجنان، قيل: فالذي كان في معاوية؟ فقال: تلك النكراء، تلك الشيطنة، وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

فالذي يسمع ويعقل، أو يعقل ويسمع، أو يعقل دون حاجة إلى السمع، إلا عن رجالات الوحي لتكميل ما عقل، هذا الإنسان اللبق لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء، ولا يجحد مثل ما يجحد به أولئك الأوغاد المناكيد، ولا يتسرع باتهام الرسل بالضلال الكبير، فلا يكون آخر مطافه عذاب السعير: وماذا عليهم لو سمعوا من العقلاء النابهين، أو عقلوا في أنفسهم! فإن حدود كيان الإنسان كإنسان، إنها سمعه من العقلاء، وعقله في نفسه، ولتصبح حياته في ازدواجية مشرِّفة لا يضل فيها، وأما إذا حصر سمعه بالمضلات، وعقله بالملهيات والشهوات فهو السعير في نفسه، وإنما سعير النار صورة واقعية عن سعيره:

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: كما سحقوا كيانهم الإنساني بسحق عقولهم ومحق فطرهم: بعّدوا عقولهم عن السمع، وأسماعهم عن العقل، فحُرموا الحياة حق الحياة، فهم يوم القيامة عن حياة الجنة مسحوقون: بعيدون.

﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾: وهو هنا عدم عقلهم، سواء عن سمعهم أو سواه، فأكبر الذنوب عدم استعمال العقل، لا عدمه، فإنه الجنون الاضطراري، والتكليف خاص بالعقلاء، وإنما الذنب هو الجنون الاختياري، للعاقل الذي لا يستعمل عقله حتى يصبح كأنه مجنون، في تفكيراته وتصرفاته الفوضى.

إيقاظان:

قد يُستند إلى هذه الآيات في انحصار عذاب النار بالكفار المكذبين للنذر: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ ... فَكَذَّبۡنَا ... إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ حيث العموم المستغرِق لأهل النار في المكذبين الكفار! وهذا خلاف الآيات الشاملة لغيرهم، أو الخاصة بمن سواهم من المتخلفين!.

والجواب نجده في الآية المسبقة: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ ...﴾

فهم المعنيون بـ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ . . .﴾ لا كل أهل النار، وإثبات النار لهؤلاء الكفار لا ينفيها عن سواهم ممن يستحق النار، وإنما اختص المكذبون بالذكر هنا لأنهم صِلاء النار ووَقودها، وهم الخالدون فيها أبداً، دائمون فيها ما دامت.

وقد يستند الجبرية هنا بـ«لو» - الدالة على امتناع مدخولها - على أن سماعهم للحق وعقلهم عنه كان من المستحيل: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ فكيف يلامون ويلومون أنفسهم؟

والجواب: إن كانت هناك استحالة فإنما هي بالاختيار: إنهم تمادوا في الطغيان حتى كأنهم أصبحوا طغاة في ذواتهم بما كسبوا: ﴿كَلَّا بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[1] فمن رين على قلبه لا يستطيع السمع والعقل بما كسب، ومن العقوبات الإلهية يوم الدنيا أنه يُزيغ قلوب من زاغوا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾:

الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون عن علم بما يخشى منه، ولذلك خص بها العلماء بالله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[3] ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾[4].

والخشية العالمة من نتائج العقل الفعال، فأصحابه يخشون ربهم، يخشونه لما عقلوه وعلموه من ربوبيته لهم ولعالمهم، وكلما ازدادت المعرفة هذه ازدادت الخشية، وكلما ازدادت الخشية ازدادت المعرفة، تناصراً في الزلفى، ابتداءً من العقل.

(١) سورة المطففين، الآية: ١٤.
(٢) سورة الصف، الآية: ٥.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: غيب الرب، فرغم أنه غيبٌ عن الإحساس يخشونه، لأن عقلهم عنه وعلمهم به جعلهم كأنهم يرونه: «اعبد ربك كأنك تراه وإن لم تكن تراه فإنه يراك».

و﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: غيب العقل، فبه يعرف الرب ويخشى، فهو لا يعرف ويخشى بالحس «فلا يُحس ولا يُجس ولا يمس ولا يدرك بالحواس الخمس» وإنما يعرف بالعقل وبأصحابه من الفطرة والصدر والقلب، عقل معرفة لا عقل إحاطة واكتناه ذات أو صفة.

و﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: غيباً عن الناس، بينه وبين ربه، ولكي تسلم خشيته عن الرئاء، طالما يخشاه في الناس أيضاً، فمن الناس من يخشى ربه عند الناس، وإذا خلى عنهم لا يخشاه، أو لا كما يخشاه عند الناس، ومنهم من يخشاه في الغيب إخلاصاً في الخشية، ثم قد لا يخشاه في الناس، زعم أنه مزيد في الإخلاص! ومنهم من يخشاه في الغيب أكثر مما يخشاه علانية، ومنهم من يعكس أمر الخشية هذه وهم الأكثرون، ومنهم من يخشاه في الغيب والشهادة على سواء، فلا يفرق له حضور الناس وغيبهم، وهؤلاء هم الأقلون عدداً، وهم المعنيون هنا، وإن خصت خشيتهم بالغيب هنا بالذكر، لأنه الأصل فيها، ثم من سواهم في هدى أو ضلال، مهما اختلفت درجاته أو دركاته!.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ وهو غيب، بغيب عقولهم، وفي غيب عن الناس ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: مغفرة لرفع ما ربما يعرضهم من خطأ وغفلة، ودفع ما ربما يقصدهم ولمَّا، مغفرة دون عذاب، ولأنهم تبنَّوا حياتهم من خشية الرب، وهي من أكبر كبائر الحسنات اللاتي يذهبن السيئات: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1] ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[١] وأجر كبير لموقفهم هذا - الكبير.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾:

أسروا قولكم: مع ربكم - في ذكره ودعائه وعبادته، أو في معصيته، أو اجهروا به، فهما على سواء لربكم: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فالقول إبداء لما في الصدر، والله عليم بذات الصدور، أكثر مما يعلمه ذوات الصدور من أنفسهم.

فهل يجهر المؤمن بقوله لكي يعلمه الله؟ فلا يصلح هكذا جهر! أم يجهر لكي يتبعه غيره فيشاركوه في عبادة ربه؟ فنعم ونعما هو! أم هل يسر الكافر بقوله لكي يخفيه عن الله، فالله عليم بذات الصدور! ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٢] فكيف بالجهر، وتقديم السر هنا يوحي بما يروى أن الكفار كانوا يسرون من وقيعتهم على النبي لكي لا يسمعه ربه فيخبره به[٣] كما ويوحي بتقدم السر على الجهر إذ القول إنباء عما في الضمير، والله تعالى خبير بما في الضمير ولمَّا يظهر، ثم خبير به إذا ظهر وهو أجدر، فكأنه أخبر بالسر من العلن إذ قدم السر، ولكنهما له سواء: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: صاحب الصدور، فإذا هو عليم بأصحاب الصدور ذواتهم، فكيف تخفى عنه الصدور ومطوياتها.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾:

لطيف في ذاته فلا يُرى، ولطيف في خلقه و«بخلقه بلا علاج ولا أداة

(١) سورة النساء، الآية: ٣١.
(٢) سورة طه، الآية: ٧.
(٣) عن ابن عباس: كانوا ينالون من رسول الله ﷺ فيخبره جبرائيل، فقال بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم - لئلا يسمع إله محمد ﷺ فأنزل الله هذه الآية.

ولا آلة، وإن كل صانع شيء فمن شيء صنع، والله الخالق اللطيف الجليل خلق وصنع لا من شيء» كما عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام [١].

﴿الْخَبِيرُ﴾: وعلى حد تفسير الإمام الرضا عليه السلام: «وأما الخبير فالذي لا يعزب عنه شيء، ولا يفوته شيء، ليس للتجربة ولا للاعتبار بالأشياء، فعند التجربة والاعتبار علمان ولولاهما ما علم، لأن من كان كذلك كان جاهلاً، والله لم يزل خبيراً بما خلق، والخبير من الناس، المستخبر عن جهل، المتعلم، فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى»[٢].

وإن اجتماع الاسم واختلاف المعنى بين الخلق والخالق، يعم الذات والصفات والأفعال أجمع، فالموجود يطلق عليهما، ولكنما حقيقة الوجود الإلهي تباين وجود المألوهين تبايناً كلياً، ولا يعني باختلاف المعني، اختلاف المفهوم فقط، بل كل ما وراء الاسم، من مفهوم وحقيقة خارجية، فكما أن واقع الوجود الإلهي يباين واقع وجوداتنا «باين عن خلقه وخلقه

(١) أصول الكافي عنه عليه السلام في حديث طويل، قوله عليه السلام: إنما قلنا اللطيف للخلق اللطيف لعلمه بالشيء اللطيف، أو لا ترى إلى أثر صنعه في النبات اللطيف، ومن الخلق اللطيف، ومن الحيوان الصغار، ومن البعوض والجرجس، وما هو أصغر منها ما لا تكاد تستبينه العيون، بل لا يكاد يستبان لصغره، الذكر من الأنثى، والحدث المولود من القديم.
فلما رأينا صغر ذلك في لطفه واهتدائه للفساد والهرب من الموت والجمع لما يصلحه، وما في لجج البحار وما في لحاء الأشجار، والمفاوز والقفار. وأفهام بعضها عن بعض منطقها، وما يفهم به أولادها عنها، ونقلها الغذاء إليها، ثم تأليف ألوانها حمرة مع صفرة، وبياض مع حمرة، وأنه ما لا يكاد عيوننا تستبينه لدمامة خلقها، لا تراه عيوننا، وتلمسه أيدينا، علمنا أن خالق هذا الخلق لطيف لطف بخلق ما سميناه...

(٢) أصول الكافي علي بن محمد مرسلاً عن أبي الحسن الرضا عليه السلام - وفي تفسير البرهان ابن بابويه بإسناده عنه عليه السلام قال: إنما سمي الله بالعلم لغير علم حادث علم به الأشياء واستعان به على حفظ ما يستقبل من أمره، والروية فيما يخلق ويفنيه ما مضى مما أفنى من خلقه مما لو لم يحضره ذلك العلم ويعينه، كان جاهلاً ضعيفاً، كما أنا رأينا علماء الخلق إنما سموا بالعلم لعلم حادث إذ كانوا قبله جهلة، وربما فارقهم العلم بالآية فصاروا إلى الجهل، وإنما سمي الله عالماً لا يجهل شيئاً فقد جمع الخالق والمخلوق واختلف المعنى على ما رأيت -.

باين عنه» كذلك المفهوم من الوجودين، فنحن نفهم من وجوداتنا ما نفهم، ولا نفهم من حقيقة الوجود الإلهي إلا أنه غير معدوم، وأما الإحاطة بوجوده، أو إدراكه ولو شيئاً ما - فلا!.

فالاعتراف بأنه خالق، لزامه الاعتراف بعلمه، إذ الخلق يلزمه اللطف والخبرة: العلم والقدرة والحكمة والبصيرة، فالخلق الفوضى لا يأتي إلا بالفوضى والفتور والفطور ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾[1]!

فمهما أنكر الماديون الخالق المجرد عن المادة، فهل بإمكانهم إنكار الخلق، وإن خالقه عليم لطيف خبير؟! وإذا لم تدل حكمة الخلق وروعته وتناسقه وتلاؤمه، على لطف خالقه وخبرته، فهل تدل على جهله وفوضويته؟ فهل بإمكان الجهل والفوضى أن يأتيا بالحكمة، وليس بإمكان العلم؟ إذاً فعلى الجهال أن يحتلوا كراسي التدريس في مختلف العلوم، ثم الأساتذة العلماء يعتبرون أنفسهم خدامهم أو تلامذتهم!.

(١) سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾:

الأرض الذلول:

نستوحي من جعل الأرض ذلولاً أنها كانت قبلئذٍ شماساً غير ذلول، وبما أن الذلَّ ما كان بعد تصعُّب وشِماس، والذلول هي الدابة التي ذلت بعد شماس، نتأكد أن أرضنا هذه تحكمها حركات متلائمة كالدابة الذلول، لحدٍّ كأنها دابة، وقد ذكرت لها مناكب كما للدابة: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾!.

فمن رحمته تعالى أنه جعل أرضنا الشموس، المحترقة المجنونة، التي

ما كانت تذل لراكب، ولا تحنّ لعائش، جعلها لنا كالمركوب الذلول، ممكِّنة من الاستقرار عليها، والتصرف فيها، طائعة غير مانعة، ومذعنة غير مدافعة، ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾: في ظهورها وأعاليها، ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

فيا لحركات الأرض من نعمة في ليونتها ونعومتها، لحدّ ما كانت البشرية تحسها ولمّا، ولا تصدقها حتى برهن لها العلم، وقبله صرحت بها آيات بينات، منها آية الذلول، مهما أوّلها المفسرون الأُوَل، زعمَ سكون الأرض، وحتى الآن لا يكاد يصدقها المؤمنون غير المثقفين!.

هذه الوالدة الحنونة، تُنوِّم وتُعيِّش أولادها، وأفلاذ كبدها، بحركاتها الناعمة اللينة، حركات لولاها لانصدمت الأرض ومَن عليها، بما لم يكن ليجبرها أيُّ جابر.

فالأرض جعلت ذلولاً في حركاتها وحرارتها وجرمها وكل ما يصلح للحياة فيها، وهذه هي غاية الذل ومبالغته المستفادة من صيغة المبالغة «ذلول».

وآية القرار: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾[1] ليست بالتي تُسكن الأرض عن حراكها، بل تُقر الأرض في حركاتها، إذ «القَرّ» أصله البرد، إيحاءً بسابق حرارة الأرض وشماسها في حركاتها المجنونة، فجعلها ذلولاً، ومن ذِلِّها قرارُها: برودتها لحدّ تحنُّ لعائشيها وراكبيها أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه.

ثم نجد آيات: «الكفات»، و«المهاد»، «والراجفة التي تتبعها الرادفة» ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾[2] نجدها تصريحات في حركات الأرض، كما درسناها وندرسها في طياتها.

(١) سورة غافر، الآية: ٦٤.
(٢) سورة يس، الآية: ٤٠.

فمن أسباب جعل الأرض ذلولاً جبالها الرواسي وكما في خطبة لعلي عليه السلام: «وعدّل حركاتها بالراسيات من جلاميدها» ومنها تبريدها عن حرارتها الزائدة ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

إن هذه الجبال الشاهقة الخُشن الملامس، الصعبة المسالك، التي جعلت للأرض أثقالاً وأوتاداً، وللخلق معقلاً، إنها مع سائر المرتفعات هي مناكب الأرض، وقد ذللها الله تعالى على شموخها أن نمشي عليها ونستثمرها لصالحنا، أو نفجرها أو نستفجرها لصالحنا، ثم الأرض ذلول لنا، لا ليِّنة لا نتماسك عليها، ولا صعبة لا نقدر على حفرها وزرعها، ولولا أن الله تعالى جعلها ذلولاً لما أمكنت من التصرف على ظهرها، ولا مَثبت قدم عليها، ولا مسرح نعم فيها، سبحان الخلاق العظيم!

﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾: أما كانت الأرض قبلنا ذلولاً؟ وولادتنا نحن الأناسي من آدم ليست إلا زهاء مائة قرن، والأرض تعيش وتعيِّش العائشين عليها منذ ملايين السنين!؟

الجواب: إن «لكم» لا يخصنا نحن الإنسان من ولد آدم الأخير، بل تعم كل من يستأهل الخطاب بـ«كم» ممن عاش على وجهها منذ الملايين من السنين، وكما عن الإمام الصادق عليه السلام: إن الله تعالى خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم وأنت في آخرهم.

فـ«كم» هنا، تعني عامة المكلفين العائشين على وجه الأرض، منذ جعلت ذلولاً، أو أن الخطاب هنا تختصنا تشريفاً وتكريماً لنا، كأنما الأرض ذللت لنا، وقد كانت مذللة لمن سبقنا. فقد أخذت الأرض - بجوها - تقبل بخار المياه وتُبدلها ماءً، وتقبل مياه السماء واختباءها في عيونها، وإنبات الأرض نباتها، فإعاشة حيوانها وإنسانها، وكما نجد عرض التكامل الأرضي في الآيات من فصلت.

إننا - لطول ألفتنا بالحياة على هذه الذلول، وسهولة استقرارنا عليها، وسيرنا فيها، واستغلالنا لتربتها ومائها وكلائها وهوائها - نحن ننسى نعمة الله في تذليلها لنا، والله تعالى يذكرنا إياها ويبصرنا بها في هذا التعبير العبير، عديم النظير، الذي كله علم وحكمة وموعظة وذكرى: يوحي أن هذه التي نراها مستقرة ثابتة، هي كدابة دائبة الحركة متحركة، رامحة راكضة مهطعة، لا تبعثر راكبها، ولا تتعثر خطاها، ثم هي حلوب: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

فيا لها من إشارة عابرة في الذكر الحكيم عن مركوبنا، تحمل ما لم يتحمله العلم على تقدمه البارع، مدى التأريخ وحتى الآن.

فالأرض ذلول في حركاتها حول نفسها وحول شمسها، وهي معها حول فلك جماعي تحول حولها المنظومة الشمسية، بسرعة على ترتيب: ألف - خمسة وستين ألف - عشرين ألف: ميلاً في الساعة، ومع هذه الركضات المسرعة يعيش عليها الإنسان آمنا دون اضطراب فيها، ولا انفلات عنها، ولا دوخة وارتجاج في مخه، وفي كل هذه الدورانات حِكَم لا يحصيها العلم، وإن وصل إلى بعضها.

والله تعالى جعلها ذلولاً بآلاف من هذه المواقف الحكيمة الضرورية، التي لولاها، أو واحدة منها، لاستحالت الحياة عليها أو صعبت، وسوف نرسل البحث الفصل عن طائرتنا الجوية الكفات في سورة المرسلات، لو ساعدتنا الحياة، بتوفيق خالق الحياة والممات.

وهل لنا أن نأمن على هذه الأرض، ولأنها ذلولٌ؟ أما إن ذلتها ليست إلا بما جعلها تعالى لنا، فإذا شاء يخسف بنا الأرض فإذا هي تمور، أو يرسل علينا حاصباً!

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾: ٤١٨

هل يا ترى أن الله ساكن السماء وماكنها حتى يخسف بنا الأرض منها!

كلا! ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[١] ليس له مكان، لأنه الذي مكَّن المكان! وإلهيته تشمل السماوات والأرض، لا ذاته، وإنما قدرته وعلمه وقيوميته!

الجواب: إن من في السماء إنما هم المدبرات أمراً بإذن الله، لا ذات الله، سبحانه وتعالى عما يصفون، ومنهم ملائكة يصدرون عن أمره ويفعلون ما يؤمرون.

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾: يشقها بكم ويغيِّبكم فيها، فإذا هي تمور: تتردد ذهاباً وإياباً كالموج: أن يهزها هزاً ويرجها رجاً، فهي تمور وتفور، فتفرقكم في مورها من فورها، فالذي جعلها ذلولاً بعد شماسها، هو القادر على أن يرجعها شموساً مارداً مائراً.

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾:

الحاصب: الريح التي تأتي بالحصى والحجارة، وكما أرسلها على قوم لوط المجرمين: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾[٢] ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾: نذيري؟ كيف حال المنذَرين، المؤمنين منهم والكافرين، وكيف المنذِرون، فهل هم كما قلتم: في ضلال كبير؟ أم أنتم الأوغاد المناكيد!.

وإذ لم نرَ حتى الآن مور الأرض وحاصب السماء، فقد رأينا الزلازل والبراكين التي تكشف عن الوحش الجامح الكامن في الدابة الذلول، التي يمسك الله بزمامها فلا تثور إلا بقدر، ولا تجمح إلا ثوانٍ عدة، يتحطم فيها ما شيدناه، أو يغوص فيها إذ تفتح أحد أفواهها وتخسف قطعة منها وهي تمور!

(١) سورة الزخرف، الآية: ٨٤.
(٢) سورة القمر، الآية: ٣٤.

﴿ءَأَمِنتُم﴾ أمان الغافل الناكر مكر الله ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[1] ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾[2].

هذا! أما إذا أمنتم إلى الله ورعايته ورحمته، فهذا من صفة المؤمنين، لا يقودهم إلى الغفلة والانغمار في غمرة الأرض ومتاعها، وإنما يدفعهم إلى الحياء من الله، وأن يرقبوا أعمالهم، ويربطوا بها أمنهم وآمالهم.

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾:

نكيري عليهم بما أنكرت موقفهم كما أنكروني وعاشوا حياتهم نكيراً لي.. فنكيرهم كان إنكار نعمة الله بعدما عرفوها، وإنكار طاعة الله وعبادته، وإنكار نذره ورسله، ونكير الله عليهم أنه ينساهم كما نسوه ونسوا سوء الحساب، جهنم يصلونها وبئس المآب.

فنكير الله هنا هو الإنكار وما يتبعه من آثار الخراب والدمار، تصف لهم كيف كان هذا النكير وما أعقبه من تدمير خطير.

فهل بإمكان الإنسان أياً كان أن يكافح نكير الرحمن ويدافع عن نفسه مور الأرض وحاصب السماء، أو رجفة موضعية بسيطة، أو حسباناً؟ قد يخيل إلى البعض من العميان المناكيد أن الإنسان هو سيد الكائنات، وسوف يتمكن من كفاح الحوادث بقوة العلم، وهذا تكذيب لوعود الله: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.
(٢) سورة النحل، الآيات: ٤٥-٤٧.